جامعة تكريت / كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم التاريخ / المرحلة : الثالثة

المادة : فلسفة التاريخ

عنوان المحاضرة /

فلسفة هيغل المثالية وانعكاسها على التاريخ

.....

أ م د : نعمه بحر فياض

العام الدراسي ٢٠٢٥-٢٠٢٦

فلسفة هيغل المثالية وانعكاسها على التاريخ

تقوم فلسفة هيغل على مثالية لها تصورات عقلية تأملية ميتافيزيقية، فالمعرفة عنده تقوم على العقل بالدرجة الأولى، ولا تقوم على المحسوس الخارجي، والوجود الحقيقي للأشياء أو ما يمكن أن يكوف حقيقة واقعة ليس هو المحسوس بل المعقول، وذلك يتفق مع الغاية الرئيسة التي يضعها هيغل لتفلسفه وهي فهم الواقع وعقلنته، أي جعل الواقع مقبولا مم قبل العقل، ويعني جعل الذات والواقع من جنس واحد، وبعبارة أخرى تعتيل الواقع، أي أن يصبح كل ما هو واقعي معقولاً، وكل ما هو معقول واقعياً، وهذا ما كان يقصده هيغل من المثالية، والتصورات الميتافيزيقية لهيغل ترى أن الوجود واحد، ليس فيه كثرة ولا تعدد، وما الذات والأفراد والظواهر أو أية وحدات مستقلة أخرى سوى مظاهر خادعة لحقيقة الوجود التي يمثلها (الكل) أو (المطلق) بحسب تعبيره، وهذا المطلق لا يعتمد على شيء خارج عنه، فهو كل شيء على الإطلاق وتتحد فيه الذات والموضوع، وعال الواقع والمثال، أو الواقع والعقل.

أن فكرة العقل تحتل مكانة مركزية في فلسفة هيغل، تلك الفلسفة التي اهتمت بدراسة العقل في مجالات عديدة: العقل الخالص، والعقل في حالة تحققه في الكون كما في فلسفة الطبيعة، والعقل من حيث تحققه عن طريق الفكر والنشاط الإنساني وذلك في فلسفة الروح.

وقد انعكست هذه الفلسفة المثالية التي تتبنى فكرة العقل أو الروح، المطلق الكيان، على التاريخ، فجاء تفسير هيغل للتاريخ تفسيراً تجريدياً ميتافيزيقياً يقوم على التأمل المطلق، جاعلا من ذلك المطلق محركاً للتاريخ، يكشف عن كيفية سريانه في مجرى التاريخ وتحريكه لأحداثه المطلق الجدل الهيغلي (الديالكتيك الهيغلي) ، وهو تفسير لم يقم على استقرار للتاريخ العام والاعتماد على وقائعه وأحداثه بالقدر نفسه الذي قام فيه عمى المنظور الفلسفي المثالي.

العقل المطلق محرك الأحداث التاريخ

العقل عند هيغل هو جوهر الطبيعة، وفي الوقت نفسه فأنه جوهر التاريخ، فالطبيعة عبارة عن تشكيلة مجموعة من الظواهر والصور الفردية التي تبدو وكأنها أشياء منفردة عن بعضها، أون المقارنة بينها تؤدي إلى العثور على العنصر الكلي الكامن وراء هذه الظواهر والصورة الفردية، وان العناصر الكلية الكامنة وراء هذا التنوع الهائل من الظواهر والصور هي الأنواع، والأنواع وحدها تبقى وتتكرر دون الأفراد ، والفكر وحده يدرك هذه الأنواع التي يندرج تحتها جميع القوانين التي تنظم مسار الأجرام السماوية، إن الأنواع أو الكميات أو القوانين هي كل ما يشكل العقل في الطبيعة، فالكلي يتحك في الجزئيات أو الأفراد دون أن تدركه الحواس، دون أن يكون له وجود فعلي تدركه الأبصار على أنه كلي ومن ثم يغدو العقل هو جوهر الطبيعة وهو المتحكم بها، والعقل عند هيغل هو جوهر التاريخ البشري أيضاً على النحو نفسه الذي رأينا فيه أن العقل هو جوهر الطبيعة، وأن هناك فارقاً مهماً واحداً بين الط بيعة والتاريخ يمثل في أن العقل الذي يحكم التاريخ هو عقل يعي ذاته ويدرك أفعاله، ومثل هذا الوعي لا يوجد في العقل الكامن وراء ظواهر طبيعية.

إن فلسفة هيغل التي ترى أن العقل يسيطر على العالم، تقدم لعملية تفسير التاريخ فكرة رئيسة واحدة، تعبر عنها عبارات هيغل: (العقل يحكم التاريخ) ، وتاريخ العالم يتمثل بوصفه مساراً عقلياً وهو يشكل أي تاريخ العالم المجرى العقمي الضروري لروح العالم، أون هيغل في بداية محاضراته عن فلسفة التاريخ يقرر أن مقولته العقل يحكم التاريخ، التي اتخذ منها الأساس في تفسيره للتاريخ، وهي مجرد حدس أو فرض، وذلك قبل أن يصل إلى البرهنة عليه في محاضراته تلك عن طريق دراسته للتاريخ كما يقول، في حين يؤكد في الوقت نفسه أن مقولته الفلسفية: العقل يسيطر على العال، ليست فرضاً في مجال الفلسفة، فهو قد برهن عليها من قبل من خلال المعرفة النظرية التي انتهى

منيه إلى أن العقل هو جوهر مثلما هو قوة متناهية بالقدر نفسه، ويكمن مضمونه اللامتناهي خلف كل حياة طبيعية وروحية.

كان هيغل يرى أن فكرته عن سيطرة العقل على العالم، هي فكرة قديمة عبر عنها الفيلسوف اليوناني أنكساغوراس (نحو ٥٠٠-٤٢٨ ق .م) في عبارته الشهيرة: إن النوس يحكم العالم، وهو يعني بها أن الطبيعة تجسيد للعقل، وأنها تخضع دائماً لقوانين كمية.

وفي مسألة كيفية ارتباط العقل بالتاريخ، وبدايات هذا الارتباط فإن هيغل يرى أن التاريخ يبدأ في المرحلة التي يصبح الإنسان فيها واعيا بنفسه، فإذا كان التاريخ هو حياة البشرية على الأرض عبر الأزمان، فإن انفصال الإنسان عن الطبيعة كان أمراً لازماً، كما يكون بداية للتاريخ، إذ لا يمكن للتاريخ أن يبدأ حينما يكون الإنسان متحد مع الطبيعة، غير قادر على التعرف على نفسه وحينما ينفصل الإنسان عن الطبيعة ويصبح واعيا بذاته، فإن هذا الوعي يتيح لتاريخ الإنسان أن ينطلق بعد أن امتلك الحرية المتمثلة بالوعي، فوجود الإنسان وتاريخه، مرتبط بالحرية التي تمثل ماهية العقل الذي سيتحكم بالتاريخ، ويجعل منه العالم مساراً عقمياً كما يتصوره هيغل.

العقل أو الروح محرك لأحداث التاريخ

يرى هيغل إن ماهية العقل، أو طبيعة الروح هي عكس طبيعة المادة. فالمادة ماهيتها الثقل والعقل ماهيته الحرية، وأهم خصائص المادة:

١- الثقل أو الجاذبية التي تجعلها تميل نحو المركز مما يجعل حركتها ليست حرة، وتسير باتجاه اوحد.

٢- تكونها من ذرات منفصلة، لذلك فإن وحدتها خارجية فحسب، أما الروح فإن وحدتها داخلية، وليس لديها وحدة خارج ذاتها، وهي لا تعبر عن صفاتها إلا بواسطة الحرية التي لا تكون إلا

بالاستقلال، ولذلك فأن تاريخ العالم من وجهة نظر هيغل هو صراع من جانب الروح لتصل إلى مرحمة الوعي الذاتي وهي المرحلة التي تكون فيها حرة عندما تسيطر على العالم.

إن مسيرة تاريخ العالم تعبر عن تقدم الوعى بالحرية، وهي ولا تفسر فيها تلك الوقائع بعمل جزئية ذلك أن تلك العلل ليست ألا أسبابا عرضية ظاهرة وهى مسيرة مرت كما يرى هيغل مرت بمراحل تمثل كل مرحلة فيها مقدار الحرية التي حققتها الروح، وهي:

١- مرحلة الحضارات الشرقية القديمة: وهي المرحلة التي كان فيها الناس عبيداً للحاكم

والحاكم لوحده هو الحر، وأن الوعي بالحرية كان في مراحله البدائية.

٢- مرحلة الحضارة اليونانية والرومانية: وهي مرحلة التي شهدت توسع فيها نطاق الوعي بالحرية أكثر مما كان عليه لدى الأم الشرقية القديمة، فاليونان والرومان كانوا يعدون أنفسهم أحراراُ دون عن باقي أبناء الأم الأخرى الذين كانوا برابرة (أي اقوام همجية بعيدة عن التحضر) من وجهة نظرهم ، واجازوا اتخاذهم عبيداً عند وقوعهم في الاسر خلال الحروب، وكان كبار فلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو يقرون بوجود نظام الرق لأن حقيقة حرية الإنسان التي يكتسبها بوصفه إنساناً لم تكن معروفة لديهم .

٣- **مرحمة الحضارة الجرمانية:** يرى هيغل أن المرحمة التي وصلت إليها الأم الجرمانية هي مرحمة الوعي بالحرية، ومعرفة مبدأ أن الإنسان حر بمجرد أنه خلق إنسان ، وذلك لأول مرة في التاريخ .

الدولة تجسيد فعلي للحركة

إن مراحل تحقيق الحرية، التي ترجع إلى تقدم الوعي بالحرية لدى الروح أو العقل عبر مسيرة التاريخ البشري، تتجسد بصورة عملية عبر تلك المراحل المختلفة في (الدولة) فالدولة هي انتقال من مرحلة الحرية في حالة التكون أو في التحقق الفعلي للحرية عند ذاتها، إلى الحرية لذاتها على حد تعبير هيغل، فهي النظام السياسي الذي يعبر عن التحقيق الفعلي للحرية عند هيغل، والدولة هي وحدة

دراسة التاريخ، وتمثل الحرية في صورتها الواقعية، وكل نشاط بشري وكل عمل فكري إنما يتحقق من خلال الدولة وأنظمتها، أما الحاكم أو الملك الذي يقود الدولة فإنه يعبر عن إرادة الروح، حتى وان كان يعمل لمصالحه الخاصة، فهو يعكس إرادة الروح وطريقتها في تسيير أحداث التاريخ ، وأن كل شخصيات التاريخ ليست سوى أدوات لتطور ونمو منطق التاريخ الباطن الذي يتحكم به الروح دون شعورهم بذلك، "إنهم يخضعون لأهوائهم ويرمون إلى تحقيق مصالحهم، الا ان الذي يحدث الوقت نفسه هو أن غاية ما بعيدة المدى قد تحققت لم يكونوا على شعور ودراية بها ولم تكن قصداً من مقاصدهم، وهذا ما اطلق عليه هيغل تسمية : (خبث العقل الكلي المسيطر على التاريخ).

وبما أن الدولة تمثل نشاط الأفراد ، وتعبر عن إرادة الروح أو العقل الكلي، فإنها تشكل محور نشاطات الإنسان الفكرية والفلسفية ونتاجاته في مجال العلوم والفنون والقوانين والأخلاق، فضلا عن الدين الذي يشكل باعثاً لتحقيق أهداف الدولة، وقد تطورت الدولة عبر التاريخ، وكان تطورها انعكاساً واقعياً لمسيرة تاريخ العالم التي تسعى نحو الحرية وتمثل تقدماً مطرداً للروح أو العقل في سعيه نحو تحقيق هذا الهدف، ومن ثم يغدو تطور الدولة تطوراً باتجاه تحقيق الحرية:

١- مراحل تعكس في الوقت نفسه مراحل تطور الدولة عبر التاريخ البشري .

٢- إن مراحل تطور الدولة تعد من مراحل التطور الذاتي الذي بلغ هدفه النهائي، في راي هيغل، بقيام الدولة الجرمانية ووصول الأمة الجرمانية إلى مرحلة الوعي بالحرية مما ترتب عليه تحقيق الحرية لجميع الناس في هذه الدولة .

٣- اكد هيغل بان وذلك كله لم يتحقق إلا بعد مرور الدولة بمرحلتين كان السعي خلالهما يجري بدأب نحو بلوغ هذا الهدف، وهما: مرحلة الدولة الشرقية، ومرحلة الدولة اليونانية الرومانية.

نقد التفسير المثالي

تبنى التفسير المثالي للتاريخ عدد من المؤرخين والفلاسفة الغربيين خلال القرن التاسع

والقرن العشرين ، ولعل المؤرخ والفيلسوف الإيطالي بنديتو كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢)

كان من أبرز هؤلاء، أونه كان يرى في التاريخ هو "الإله المستتر غير المرئي الذي يتجلى في العالم المرئي، وأنه "النمو الدال لروحانية الروح، بيد أن انتقادات عديدة وجهت إلى التفسير المثالي للتاريخ بصورة عامة، والى التفسير الفيلسوف الألماني هيغل للتاريخ بصورة خاصة ، فالتفسير المثالي للتاريخ يؤدي على رأي بعض منتقديه، إلى تبني فكرة الحتمية أو الجبرية في تفسير الأحداث التاريخية، فما هو غير مفهوم من هذه الأحداث أو يفتقر إلى الأسباب المقنعة يعزى إلى عناية رحيمه أو روح ميتافيزيقية كانا السبب وراء حدوثه.

كان تفسير هيغل لحركة التاريخ في النقد على أساس كونه تفسيراً مثالياً، إذ يرى منتقدوه أنه كان موغلا في التجريد والمثالية، اعتمد التصورات العقلية الميتافيزيقية أساساً لعملية التفسير عمى حساب أحداث التاريخ وطبيعة أبعادها ودلالاتها التي كان لها دوراً محدوداً في تلك العملية، بسبب اتجاه فلسفة هيغل بشكل عام لدمج ما هو عقلي بما هو واقعي، وهو ما اطلق عليه (تعقيل الواقع)، مما استغرق التفسير لهيغل للتاريخ من مجال الميتافيزيقيا، التي قامت عليها فلسفته أكثر مما اعتمده من معطيات التاريخ البشري المدون، وان تفسير هيغل المثالي التجريدي للتاريخ ليس فيه تعالياً على المادة التاريخية، كما يصوره الدكتور أحمد محمود صبحي، بقدر ما فيه انعكاس لمنهج اتبعه الفلاسفة غالباً موضوع فلسفة التاريخ، وهذا المنهج يختلف في اعتماده رؤى الفلسفة، عن منهج المؤرخين الذين يغلبون عادة الاعتماد على المادة التاريخية حينما يتصدون للموضوع نفسه، وعلى سبيل المثال، أن مقارنة أولية بين نظرية هيغل في فلسفة التاريخ، وبين كل من نظريتي ابن خلدون وأرنولد توينبي تؤكد رأينا هذا.

وفي مجال نقد فلسفة هيغل، يلاحظ أن تفسير التاريخ الذي يمنح أوربا دوراً محورياً مهيمناً في التاريخ العالمي كله لا يمكن أن يكوف تفسيراً موضوعياً، وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح في نظرية هيغل في فلسفة التاريخ. إذ يرى هيغل أن مسيرة تاريخ العالم تعبر عن تقد الوعي بالحرية، وأن هذه

المسيرة مرت بثلاث مراحل حضارية عكست من خلالها ذلك التقدم، فعدا المرحلة الشرقية القديمة، كانت اثنتان منها في أوربا، وهما الحضارتان الكلاسيكية واليونانية الرومانية والحديثة، وفي الوقت الذي جرد فيو هيغل الشرق القديم مفن فضيلة الوعي بالحرية، أسبغ هذا الوعي المقترن بالتقدم على أوربا فحسب وعبر تاريخها القديم والحديث، ليس هذا فحسب، بل أن أفكاره في هذا المجال قد أسست فيما يبدو لظهور الفكر العنصري المتطرف الممجد لألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين ممثلا بالنازية، ذلك أن هيغل جعل الدولة البروسية في عهده، لما تحقق فيها بحسب رايه من مبدأ الحرية للجميع، هي الهدف الذي بلغه الروح خلال مسيرة تطوره الذاتي، وهذا يعني أيضاً أن التاريخ قد توقف عند الدولة البروسية ووصل إلى نهايته طالما تحقق هذا الهدف، ومن ثم يتضح أن الأمريكي فرانسيس فوكوياما لم يكن، حينها قد طرح أفكاره عن نهاية التاريخ في بداية العقد الأخير من القرن العشرين، مبتدعاً عن فكرة نهاية التاريخ.

وخيراً أن هيغل نفسه انتقد التفسير المثالي للتاريخ في صورته التي ترتبط بفكرة العناية الإلهية، لأن الإيمان بالعناية الإلهية هي فكرة عامة لا تكشف عنده عن خطة هذه العناية وتفصيلاتها في تفسير التاريخ لاسيما أحداثه المهمة ومفاصل تحولاته الكبرى المتعلقة بالشعوب والدول، بيد أنه يقر أن هناك يداً مرشدة لله ولكنها تختص بإغاثة الله للأفراد عند الشدائد التي يمرون بها، مما يجعل تأثير العناية الإلهية في مسار التاريخ محدوداً جداً، ومن ثم فإن حركة التاريخ عند هيغل لها محرك اخر غير ذلك المحرك الذي تتبناه الصورة الدينية، وهما شيئان مختلفان وان أراد بعض الباحثين أن يساوي بينهما بتأويل يصب في صالح جعل الروح أو المطلق الهيغلي هو مشابه لما جاء به الله تعالى، على أن رائيه بفكرة العناية الإلهية لا يتقاطع بالضرورة مع إيمانه المسيحي بوجود الله تعالى.